# الطرق الفرعية الأخيرة

لم تبدِ نجلاء رغبتها في قيادة السيارة أبدًا، لذلك اندهش رمزي حين أصرت أن تقود.

كان الوقتُ مبكرًا. ارتدت بنطلونًا جينزًا مريحًا وبلوزة قطنية واسعة، وبحثت عن حذائها الرياضي المنسي. وفي حركة سريعة، قبل أن يمد يده للمفتاح، احتضنته وقبَّلته قُبلة ساخنة طويلة، ثم سحبت مفتاح السيارة وأعلنت بدلال أنها ستقود هذه المرة. قائلة: "ثق بي، لن أهشم عظامك اليوم".

كان يعرف أن قُبلتها غير حقيقية. قُبلة ساخنة مدروسة بحِرَفية. فالقبلات الحقيقية مرتجلة، لكن قُبلتها واعية. دسَّت لسانها بين أسنانه في عَجَلة ولَوَت شفته السفلى. يكاد يجزم أنها لم تكن مُغمضة العينين. شعر بها تراقبه وتقيس مشاعره بقدر المسافة الصغيرة بين جفنيه.

"لن نستخدم المصعد"، قالتها نجلاء بحيوية وسحبته من يده تجاه الدَرَج. نزلت أمامه قافزة الدرجات برشاقة كأنها فتاة صغيرة. غير مبالية

بالالتهـاب الغضروفي أو خشـونة مِفصل ركبتها اليـسرى. كانا في بداية العِقد الخامس من عمريهما. لكنها ما زالت جميلة، ذات جسـد مشـدود، فارع، مناسب لعارضة الأزياء التي كانتها طوال حياتها.

منذ أيام، كانت عارية تـمامًا في سريرها. تمطعت فوق فراشـها بقوة، وكأنها تشد أوتار جسدها، ثم نهضت متكاسلة. كان الوقتُ متأخرًا، خيوطٌ من الفضة تتسلل من نافذتها الطويلة وتنعكس على المرآة أمام السرير. وقفت تتأمل البطن المشدود بإرهاق، والردف العالي الصغير. كانت الخطوط البيضاء الرفيعة تشق طريقها عليه، وخطوط السنوات أيضًا. تُقلِّب وجهها بين يديها لتشاهده من كل زواياه. الأخاديد الصغيرة أسفل الجفون وفي زاوية فمها تناسب سنواتها الكثيرة. استقرت قليلاً إلى زاوية جانبية، ونظرت متأملة وجهها. وجه طويل بوجنتين عاليتين، وعينين صغيرتين كهِرَّة، وشـفتين كبيرتين قليلاً لكنهمـا ممتلئتان وجميلتان.

لم يتبـادلا حرفًـا في السـيارة. وهـو منتبه لهـا بالكامـل، أو للطريق. يحمل قَدرًا من وسـامةٍ تزداد بزيادة سـنواته، ووجه تشوبه سُمرة خفيفة. ما إن انتهيا من زحام المدينة وبدأ الطريق يتضح أمامهما، سألته عن عارضته الجديدة. نظر رمزي إلى الجهة الأخرى، أنزل وجهه أمام مرآة السيارة الجانبية وعدل من وضع خصلات شعره الرمادية الناعمة. لم يجِب على الفور. كان يتجنب إثارة الموضوع لأيام مضت، وأراحته هي بعدم سؤالها. لكن بعد

قُبلتها المصطنعة تلك عرف أن صمتها لن يدوم.

قـال باقتضاب إنه اختبر أخرى، لكنه لم يختَرهـا بعد لتكون العارضة الرئيسية في مجموعته القادمة. صمتت ثانية. كل منهما يحاول ألا يثير العاصفة الموسـمية، التي تهيج كلما أوشك على إطلاق مجموعة أزياء جديدة. لكن كان عليه الاعتراف بينه وبين نفسه أن هذا الموسم هو الأهدأ منذ أن أبدى رغبته في استبدالها بعارضة رئيسية أخرى أصغر سنًا.

كانت تقود بسلاسـة. الطريق واسـعة وخالية إلا من بضع سـيارات تختفي خلفها في مرآتها الأمامية. وبِرك مياه تلمع على الإسفلت في الأفق، لكنها لا تبلُغها أبدًا. فوق المقود أمامها، أعلى البوق، مُلصق مصغَّر للوحة "زهرات الصباح الذهبية". صغّرها خصوصًا لها صديقها الرسام. لصقتها قبل تحركها لتكون أيقونتها أثناء القيادة.

لوحة يمكنها توسُّط جدران ردهة كبيرة بمفردها، تعود لمنتصف القرن التاسع عشر. في مركزها سيدة جميلة، تشبهها حد التطابق. تجلس في غنج رافعة يديها قبالة وجنتيها، وشعرها مرفوع لأعلى، بجانبها زهرات تغمرها أشـعة شـمس جانبية. ورغم أن السـيدة هي قلب اللوحة، لكن الرسام تجاهلها وأعطى اسمها للوردات.

تتبَّعت نجلاء السيدة الموديل في أكثر من لوحة لنفس الرسام. عرفت أنها كانت عشـيقته. منحته روحها ليرسـمها فوق كل شيء. قيل إنها من

أكثر السـيدات اللواتي رُسمن. ثم انصرف عنها ليرسم غيرها بعد رواج لوحاته.

لكنها لم تستطع تتبع كل شيء، لم تعرف مثلاً عن نزهتهما الأخيرة في ذلك الصباح البعيد، قبل امتزاج الذهبي بالفضي. حين نهضت كريستينا، السيدة الموديل، من سريرها. كانت مدللة كسولًا. ابنة لأحد نبلاء ذلك العصر. عارية تمامًا، سارت في ردهة منزلها الصغير، حيث كان ألبير، الرسام، نائمًا فوق الأريكة في نهاية الردهة العريضة، مقرفصًا من شـدة البرد. تفحَّصته كريستينا، نظرت إلى خصلات شعره الرمادية الناعمة، إلى ركبتيه المربعتين البارزتين. لم تسحب الغطاء فوقه، إنما رقدت هي بجسدها الدافئ بجانبه، واحتضنته بقوة لتدفئه. ناما كما لو أنه آخر يوم لهما على هذه الأريكة، في ذلك المنزل، في تلك الحياة.

حين استيقظا، ملأت هي حوض الاستحمام الصغير الأنيق وغمرت جسدها به. حاول ألبير دعكها بالصابون، لكنها رفضت بهدوء، وطلبت منه ارتداء ملابسه للخروج.

سـارا معًـا على مهـل، يتأبط ألبير ذراع كريسـتينا، ووهـن ما أصاب جسـده العجوز. لم يكن معها سـوى حقيبتها الصغـيرة وذراعه. طويلة، فارعة الطول، تكاد تلامس الشجيرات الصغيرة. أخبرته أنها تود التجوُّل في الغابة. تعجّب لأنها لطالما خشيت الدخول إليها، لكنها طمأنته أنهما لن يكونا طعامًا للذئاب اليوم.

لكـن نجلاء قـرأت عن لقائهـما الأول، عندما كان ألبـير مشردًا على النواصي، ببضع لوحات متسـخة بيده يعرضها للبيع أمام المارة. وكانت كريسـتينا أحدهم في ظهيرة هادئة، فوقفت لتنظر. دفعت له بعض النقود مقابـل لوحة صغيرة، وقبل أن تمضي في طريقها، قـال لها ألبير إنه يود أن يرسـمها دون مقابل. لم تتردد وسـألته متى، أجاب: الآن. فذهبا معًا إلى منزلها الصغير ولم يفترقا بعدها.

تضم الموسوعات اسمه، ألبير بوديل، أحد رسامي القرن التاسع عشر، مع صورة مُصغَّرة له. لم يُصوَّر سـوى مرتين فقط في حياته، حيث رفض الجلوس أمام تلك الآلة العجيبة. ورفض تصوير كريستينا نهائيًا، وهددها بحرق اللوحات التي رسمها لها أمام الجميع، فتراجعت عن التجربة.

عرفت نجلاء أنهما لم ينجبا أي طفل، كما عرفت أن ميوله الجنسية تغيرت، لكنها كما الباحثين لم تعرف متى. ألبير نفسـه لم يعرف متى اشـتهى جاك، بُستاني حديقة كريستينا. كان قصيرًا ومفتول العضلات، راقبه ألبير وهو يجزّ العشـب من حديقتها الصغيرة، يعمل في سرعة ويباعد ما بين فخذيه مقرفصًا فـوق الأرض الخضراء. باغته ألبـير دون كلام، اعتلاه وانتهى. لم يمـانع جـاك، ثبت ثم ارتدى بنطلونه، وأكمل عمله بسرعة كالمعتاد.

– هيا نرسم شيئًا جديدًا.

بـدأ ألبيـر اقتراحـه هكذا:

– هيا يا كريستينا، تشجَّعي واتركي مساحة من اللوحة لكائن حي آخر يشاركك بها.

لم تفهم كريستينا في البداية، رمقته ومضت في طريقها. لكنه لم يتأخر في التنفيذ، أحضر فتى صغيرًا وأمر الخدم بتنظيفه وألبسه أحد قمصانه. أجلسه بجوارها كأنهما حبيبان يروِّجان لإشاعة ما، يمضغان علكة القيل والقال. كان ألبير يعمل في سرعة، لأنه أدرك من نظرات كريستينا النارية أن الأمر لن ينجح إذا تباطأ.

لكن كريستينا لم تمنحه الوقت الكافي، إذ صفعت الفتى بقوة عندما لمحته يتحسس عضوه ويغمز لـ ألبير، وطردتهما من منزلها. عاد ألبير بالطبع بعد عدة أيام، لكنه رجع بشروط. "سأرسم ما ومن يحلو لي"، قالها بحسم الرجال، ليس لديه أي سلطة سوى أنه رجل. وانصاعت كريستينا كرهًا.

أمضت أيامها تراقبه من أعلى السلم الداخلي، وهو يرسم الفتيان الذين يحضرهم من الشارع للمنزل، لمنزلها. يرسمهم بترو ٍ ويطيل النظر إليهم. يُخلِّد هؤلاء الحمقى كما لو أنه يسخر من تخليدها هي شخصيًا. كل صباح ينهمك ألبير في اغتسال طويل، يتأكد من نعومة ذقنه أمام مرآته. تتأمله أثناء استعراضه لفحولته، وتزداد شكوكها حول انتهائه منها للأبد. ورغم ذلك، أصبحت طقوسه اليومية جزءًا من حياتها، كأنه شاشة سينما وهي المشاهِدة القديمة الوفية التي التصقت بالمقعد، ولم تعد قادرة على المغادرة.

سنوات مضت ولا تزال، وخطوط الزمن تزحف على لوحاتها بالمرسم